

الحلقة الرابعة
القَصَصُ الدِّينِيُّ
العَرَبُ فِي أَوْرَبَا

وَلَاةُ وَابْنِ دَاوُدَ

عبد الحميد جودة السحار

كانت الأندلسُ تموجُ بالفتنِ والاضطراب ، وكان
كلُّ زعيمٍ يحاولُ أن يستبدَّ بإقليمه ، والخليفةُ
المستكفي في قصرِ قرطبة ، لا همَّ له إلا الأكلُ
والشرابُ ومجالسةُ الحسان ؛ فقد كان نهماً ، ساقطَ
الهمة ، أسيرَ الشهوة ، عاهرَ الخلوة .

وتدلَّ له حبا بجاريته « سكرى » المورورية ،
فاستبدَّت به ، وأغرقتُه في لذاته ، حتَّى لاحَ أنَّ أيامَ
الأمويِّين في الأندلسِ أوشكت أن تُصبحَ ذِكرى .

كانت قرطبة مقصدَ طُلابِ العلم من مُسلمين
ومسيحيين ، وكانت جامعُها منارةً للغرب ، ينبعثُ
منها نورُ العرفان ، بينما كان قصرُ المستكفي مقصدَ
طُلابِ اللُّهو ، والرؤساءِ المَجْبولين على الجَهالة ،

العاكِفِينَ عَلَى الشَّرَابِ ، الهَائِمِينَ فِي بَحْرِ الْمَتْعَةِ .
وَأُنْجِبَتْ « سَكْرَى » وَلَادَةُ ، فَأَحْضَرَ لَهَا الْمُسْتَكْفَى
الْمُعْلَمِينَ . وَشَبَّتْ وَلَادَةُ فِي قَصْرِ تَجْرِي فِيهِ الْخَمْرُ
أَنْهَارًا ، وَيَرْنُ فِي أَرْجَائِهِ أَصْوَاتُ الْمُطْرِبِينَ وَالْجَوَارِي
الْمُغَنِّيَاتِ ، وَتَطُوفُ بِجَوَانِبِهِ أَيْبَاتُ الشَّعْرِ الْمَاجِنِ
الرَّقِيقِ ، فَتَفْتَحُ مَوَاهِبَهَا ، وَرَاحَتْ تَتَرَنَّمُ بِالشَّعْرِ
فِي طَلَاقَةٍ وَتَحْرُرُ .

وَفِي سَنَةِ ١٠٢٥ م مَاتَ الْمُسْتَكْفَى ، فَازْدَادَتْ
وَلَادَةُ تَحْرُرًا ، وَأَصْبَحَ مَجْلِسُهَا بِقُرْطُبَةٍ مُتَنَدِي لِأَحْزَانِ
الْمِصْرِ ، وَفَنَازُهَا مَلْعَبًا لِحِيَادِ النِّظَمِ وَالنَّشْرِ ، يَعِشُو أَهْلُ
الْأَدَبِ إِلَى ضَوْءِ غُرَّتِهَا ، وَيَتَهَالَكُ أَفْرَادُ الشُّعْرَاءِ
وَالْكِتَابِ عَلَى حَلَاوَةِ عِشْرَتِهَا ، إِلَى سَهْوَةٍ حِجَابِهَا .
صَارَتْ وَلَادَةُ مَقْصِدَ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَبْعَثَ
السَّحْرِ فِي مَجْلِسِهَا ؛ فَقَدْ كَانَتْ بَيَضاءَ الْبَشَرَةِ ،
شَقْرَاءَ الشَّعْرِ ، إِذَا لَعِبَتْ عَلَى الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ ،
لَعِبَتْ بِعُقُولِ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَقَاطَرُونَ

على مُنتداهَا طامعين . فقد كانت تُجاهِرُ بلذاتها ،
حتى إنّها كتبت على أحد عاتقي ثوبها :

أنا والله أَصْلَحُ للمَعَالِي

وَأَمْشِي مِشْيَتِي وَأَتِيهِ تِيهَا

وكتبت على الآخر :

وَأَمْكُنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي

وَأُعْطِي قُبْلَتِي مِنْ يَشْتَهِيهَا

٢

كان ابنُ زَيْدُونَ فَتًى مُرْهَفَ الحِسِّ ، شَبَّ في بيئَةٍ
غنيّة ، أتاحت له منذُ طُفُولَتِهِ الاتِّصَالَ بالشُّعراءِ
والأدباءِ ، وغِشيانَ مجالِسِ الأدبِ والفنون . وقد
هَفَّتْ نَفْسُهُ ليلَةً إلى مُنتدى ولادة ، الذي ذاعَ صيتهُ
في قُرطبة ، فانطلقَ إلى هناك ، ليُشاركَ شعراءَ قُرطبةَ

سهرتهم ، ويُشَنَّفَ أَذْنِيهِ بِمَوْسِيقَى وَلَادَةِ الْأَخَاذَةِ ،
التي ذاعَ أمرُها بين عُشَّاقِ الطَّرْبِ والشَّبابِ
الْأَرِسْتُقْرَاطِيِّ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِي بَذَخٍ مَا بَعْدَهُ
بَذَخٌ .

دَخَلَ ابْنُ زَيْدُونَ قَصْرَ وَلَادَةِ ، فَإِذَا بِوَلَادَةٍ
تَسْتَقْبِلُ ضِيُوفَهَا ؛ سَافِرَةَ الْوَجْهِ ، مُتَطَلِّقَةَ الْحَيَا ،
بِاسْمَةِ الثَّغْرِ . وَتَقْدَمُ ابْنُ زَيْدُونَ يُصَافِحُهَا ، فَإِذَا
بِقَلْبِهِ يَخْفُقُ فِي شِدَّةٍ بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، وَإِذَا بِبَصَرِهِ يَتَّبِعُهَا ،
وَإِذَا بِفِكْرِهِ يَشْرُدُ ، وَإِذَا بِهِ يَهِيْمُ فِي عَوَالِمِ رَحِيبةٍ
مِنَ الْخِيَالِ .

وَجَلَسَتْ وَلَادَةُ بَيْنَ أَدْبَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَشِعْرَائِهَا ،
وَدَارَتْ الْكُؤُوسُ ، وَلَعِبَتْ الْخَمْرُ بِالْعُقُولِ ، وَحَنَتْ
وَلَادَةُ عَلَى آلِهَا الْمَوْسِيقِيَّةِ ، فَإِذَا بِهَا تَعَبَتْ بِالْأَفِيدَةِ ،
وَتَسْبَى الْعُقُولِ . وَظَلَّ ابْنُ زَيْدُونَ فِي تَطَلُّعِهِ الْوَلَهَانَ ،
وَالْتَقَتْ عَيْنَاهُ بِعَيْنَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، فَرَفَّتْ عَلَى

شَفَّتِيهَا بِسْمَةٍ ، كَانَ لَهَا فِي قَلْبِهِ وَقَعُ السَّهَامِ .
وَضَلَّ ابْنُ زَيْدُونَ يَتَرَدَّدُ عَلَى مَجْلِسِ وَلَادَةٍ ،
وَالْعُيُونُ تَتَكَلَّمُ ، وَالْقَلْبُ يَخْفِقُ ؛ وَفَكَرَ ابْنُ زَيْدُونَ
فِي أَنْ يَكْشِفَ لَهَا عَنْ حُبِّهِ ، وَإِذَا بَرُقَّةٌ تَنْدَسُ فِي
يَدِهِ ، فَيَفُضُّهَا وَيَقْرَأُ :

تَرْقُبُ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي
فَبِأَنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمُ لِلسِّرِّ
وَبِي مِنْكَ مَا لَوْ كَانَ بِالْبَدْرِ مَا بَدَا
وَبِاللَّيْلِ مَا أَذْجَى ، وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسِرْ
وَاضْطَرَبَ نَفْسُ ابْنِ زَيْدُونَ ، وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى
وَلَادَةٍ ، فَإِذَا بَوَاجْهَهَا يُشْرِقُ بِابْتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ ، أَنْزَلَتْ
عَلَى قَلْبِ ابْنِ زَيْدُونَ بَرْدًا وَسَلَامًا .

فَلَمَّا طَوَى النَّهَارُ كَافُورَهُ (١) ، وَنَشَرَ اللَّيْلُ عَنَبَرَهُ ،
أَقْبَلَتْ بِقَدِّ الْقَضِيبِ ، وَرَدَّفَ كَالْكُثِيبِ ، وَقَدْ

(١) هذا وصف ابن زيدون لأول لقاء .

أَطَبَقْتُ نَرْجِسَ الْمُقَلِّ ، عَلَى وَرْدٍ كَالْحَجَلِ ، فَمَالَا إِلَى
رَوْضٍ مُدَبَّجٍ ، وَظِلِّ سَجْسَجٍ ، قَدْ قَامَتْ رَايَاتُ
أَشْجَارِهِ ، وَفَاضَتْ سَلَاسِلُ أَنْهَارِهِ ، وَدُرٌّ كَالطَّلِّ
مَنْشُورٍ ، وَجَيْبُ الرِّاحِ مَزْرُورٍ ؛ فَلَمَّا شَبَّ نَارَهَا ،
وَأَدْرَكَتْ فِيهِمَا ثَارَهَا ، بَاحَ كُلُّ مِنْهُمَا بِحَبِّهِ ، وَشَكَا
أَلِيمَ مَا بَقَلْبِهِ ، وَبَاتَا بَلِيلَةَ يَجْنِيَانِ أَقْحُوَانَ الثُّغُورِ ،
فَلَمَّا انفَصَلَ عَنْهَا صَبَاحًا ، أَنَشَدَ :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكَ
ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ
زَادَ فِي تِلْكَ الْخَطِيئَةِ إِذْ شِيعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَى
حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلَى فَلَكُمْ
بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

ومرّت الأيّامُ ، وابنُ زيدونَ وولادةُ يعبانَ من
 كأسِ الغرامِ ، ويتنقلانَ في رياضِ قرطبةَ كفراشتينِ
 طليقتينِ ، يُردّدانَ في جنّاتِ الطّبيعةِ الشّابةِ الحالمةِ
 ترانيمَ الشّعْرِ . وفي ذاتِ ليلةٍ — جلسا في مجلسِ
 ولادةٍ — وقد اجتمعَ إليها الشعراءُ — فأنشدتُ ولادةً
 في ابنِ زيدونَ :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

بكلِّ سكوبٍ هاطلِ الوبلِ مُغْدِقِ

لم يُظهرِ ابنُ زيدونَ إعجابه بالبيت ، ولم يكتفِ
 بالسُّكوتِ ، بل راحَ ينقّده ، مُدّعياً بأنَّ فيه دعاءً
 على المحبوبِ لا دعاءً له . وأحسّتُ ولادةُ إهانةً ،
 وجُرّحتُ كرامتها ، فسكتتُ على مضضٍ ، لعلَّ

ابن زيدون يَفْطُنُ إلى إِسَاءَتِهِ ، ويعملُ على أن
يَرْضَاهَا .

وَجَلَسَتْ عُتْبَةُ ؛ مَغْنِيَّةٌ وَلَادَةٌ تُرْسِلُ النِّعَمَ ، فَأَظْهَرَ
ابنُ زيدونَ إعْجَابَهُ ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُعِيدَ صَوْتًا
غَنَّتَهُ ، وَرَاحَتْ عُتْبَةُ تُكَلِّمُ رَغَبَةَ ابْنِ زيدونَ ، وَفِي
عَيْنِهَا لَمْعَةٌ ، وَفِي وَجْهِهَا فَرَحَةٌ ، وَعَلَى شَفَتَيْهَا
بَسْمَةٌ .

رَأَتْ وَلَادَةً ذَلِكَ ، فَاسْتَشَعَرَتْ مَهَانَةً ، وَضَاقَتْهَا
مَا يَفْعَلُهُ حَبِيبُهَا ، فَمَا كَانَتْ تَظُنُّ أَنْ يُوَجِّهَ إِطْرَاءً إِلَى
غَيْرِهَا فِي حَضْرَتِهَا ، فَعَزَمَتْ عَلَى أَنْ تُلْقِنَ ابْنَ
زيدونَ دَرْسًا قَاسِيًا . فَمَا إِنْ انْفَضَّ عَقْدُ الْمَجْلِسِ ،
حَتَّى أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ :

لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا
لَمْ تَهْوِ جَارِيَتِي وَلَمْ تَتَخَيَّرْ

وتركتُ غُصْنًا مَثْمِرًا بِجَمَالِهِ
وجنَحْتَ للغُصْنِ الذِي لَمْ يُثْمِرِ
ولقد عَلِمْتُ بِأَنِّي بِدُرِّ السَّمَاءِ
لكن دُهَيْتُ لِشِقْوَتِي بِالْمُشْتَرَى

٤

صَدَّتْ وَلَادَةٌ عَنْ ابْنِ زَيْدُونَ ، فَرَاخَ يَسْتَحْلِفُهَا
وَيَبْعَثُ إِلَيْهَا أُنَيْنَهُ وَنَجْوَاهُ ؛ وَلَكِنَّهَا أَغْلَقَتْ قَلْبَهَا
دُونَهُ ، وَسَرَّعَانَ مَا وَجَدَتْ عَاشِقًا جَدِيدًا ، لَا يَنْقُذُ
أَشْعَارَهَا وَلَا يَتَوَدَّدُ إِلَى جَارِيَتِهَا ؛ عَاشِقًا مَشْغُولًا عَنْ
الشَّعْرِ ، بِتَدْبِيرِ شُؤْنِ الْوِزَارَةِ . فَقَدْ مَرَّتْ بِأَبِي عَامِرٍ
ابْنِ عَبْدِوَسٍّ وَزِيرِ الدَّوْلَةِ ، وَأَمَامَ دَارِهِ بَرَكَةٌ دَائِمَةٌ ،
تَتَوَلَّدُ عَنْ كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ وَهَتَفَتْ :
- أبا عامر .

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ فَتَدَفَّقَا فِكْلًا كَمَا بَحْرُ

وانسلت في دلال ، وأبو عامر ينظر إليها في
دهش وإعجاب ، لا ينبس بكلمة ، وإن كان قلبه
أخذ يخفق في حنان . وما لبث أن تبعها كالمأخوذ ،
حتى غابت في قصرها ، وهو شارد القلب ، يستشعر
نشوة تنشق في أعماقه ، وخدرًا لذيذا يسرى في
روحه .

وتوطدت بينهما الأسباب ، فراحا يشربان كؤوس
الصباة والغرام ، وبلغ ابن زيدون نبأ حب ولادة
الجديد ، فرعت نار الغيرة في صدره ، وأخذت
تنهش قلبه ، فكتب إلى ولادة يئثها لواعج نفسه ،
ويلتمس منها أن تصفح ، وأن تنسى ما كان ، وأن
تعود إلى الوصال ، ولكن ولادة التي نشأت مدللة ،
لا تعرف إلا إجابة رغباتها ، رأت في إذلال
ابن زيدون انتقامًا لكبريائها ، فلجأت في الخصام .
فلم يجد ابن زيدون أمامه إلا أن يلجأ إلى غريمه ،

يَسْتَعِظُ تَارَةً ، وَيُنْذِرُهُ تَارَةً أُخْرَى ، وَلَكِنْ ابْنُ
عَبْدُوسَ لَمْ يَأْبَهُ بِوَعِيدِهِ ، وَلَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى تَوْسَلَاتِهِ .
وَكَتَبَ ابْنُ زَيْدُونَ إِلَى ابْنِ عَبْدِوسَ ، رِسَالَةً عَلَى
لِسَانِ وَلَادَةٍ ، كُلُّهَا سُخْرِيَّةٌ وَزِرَايَةٌ بِابْنِ عَبْدِوسَ ،
وَقَرَأَتْ وَلَادَةُ الرِّسَالَةَ ، فَازْدَادَ غَضَبُهَا عَلَى ابْنِ
زَيْدُونَ ، وَهَجَّتْهُ هِجَاءً مُرًّا ، فَلَمْ يَطُوحْ بِهِ ، بَلْ
اسْتَمَرَ فِي هُجُومِهِ عَلَى غَرِيبِهِ الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ .

٥

ضَاقَ ابْنُ عَبْدِوسَ ذُرْعًا بِرِسَائِلِ ابْنِ زَيْدُونَ ،
وَبِتَعْرِيزِهِ بِهِ ، وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْهُ ، وَفَكَرَ فِي أَنْ يَتَخَلَّصَ
مِنْهُ ، فَاتَّهَمَهُ بِأَنَّهُ يُحَاوِلُ الْقِيَامَ بِشُورَةٍ عَلَى
السُّلْطَانِ ، فَقُبِضَ عَلَيْهِ وَاقْتِيدَ إِلَى قَاضِي قُرْطُبَةٍ .
كَانَ ابْنُ زَيْدُونَ قَدْ اسْتَخَفَّ بِزَعَمَاءِ عَصْرِهِ ،
وَكَانَ كَثِيرَ النَّقْدِ لَهُمْ ، حَتَّى بَاتَ مُبْغَضًا مِنْهُمْ .

وكان قاضي قرطبة « أبو محمد عبد الله بن أحمد »
ممن أغضبهم ، فما إن وقف بين يديه ، حتى أمر
بسجنه .

أحسن ابن زيدون بتغس في سجنه ، فراح
يستعطف الوزير أبا الحزم بن جهور ، ويلتمس منه
العفو . ولكن أبا الحزم لم يعره أذنا مُصغية ، فيظل
يبعث إليه بقصائده ورسائله ، ويرسل إلى أصدقائه ،
ليكلموا أبا الحزم لإطلاق سراحه . وأخيرا يئس من
التوسل والرجاء ، فعزم على الفرار .

وفي ليلة عيد الأضحى ، فر من سجنه ، وانطلق
إلى إشبيلية . وكان أول ما فعله أن بعث إلى ولادة
قصيدة يصف فيها حاله ، لأن أوار حبه لها لم يخب :

أضحى التناي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
هلا وقد حان صبح البين صبحنا
حين ، فقام بنا للحين ناعينا

إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا
أُنْسًا بِقُرْبِهِمْ ، قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

٦

وَنَجَحَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ جَهْوَرٍ فِي أَنْ يُرَقِّقَ قَلْبَ أَبِيهِ
عَلَى ابْنِ زَيْدُونَ ، فَصَدَرَ الْعَفْوُ عَنْهُ ، وَأَصْبَحَ الْأَمْرُ
فِي يَدِ أَبِي الْوَلِيدِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، فَقَلَّدَ ابْنُ زَيْدُونَ
الْوَزَارَةَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يُنْسِهِ حُبُّهُ لَوْلَادَةِ ،
فَرَاخَ يَجُوبُ الْأَنْدَلُسَ كَالْغَرِيبِ ، يَبْكِي حُبَّهُ
الضَّائِعَ ، وَيَتَنَّمَنِي مِنْ جَوَى قَلْبِهِ .

نَزَلَ قُرْطُبَةَ ، وَذَهَبَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ ، وَاتَّجَهَ إِلَى قَصْرِ
الْمُعْتَصِدِ بْنِ عَبَّادٍ . وَلَمَّا بَلَغَ الْمُعْتَصِدُ نَبَأَ قُدُومِ
ابْنِ زَيْدُونَ عَلَيْهِ ، خَرَجَ فِي وَزَرَانِهِ لِمُقَابَلَتِهِ ،
وَوَخَّلَعَ عَلَيْهِ الْخَلْعَ ، وَجَعَلَهُ وَزِيرَهُ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ

المجد كله لم ينسِه حبه ، ولم يذهب المرارة التي كان
يحسُّها كلما فكَّر في ولادة .

ومات المعتضد ، وخلفه المعتمد بن عباد ، فازداد
ابن زيدون في بلاطه رفعة ، وراح يقضى الليالي في
شرب وسمر ، يُصغى إلى القيتان ، ويُطلق
الضحكات ، ولكن قلبه كان يدمى ، فقد صارت
ضحكاته أنينا ، وبسماته ألما .

وطفق ابن زيدون يشرب الخمر ، لعله ينسى آلام
روحه ، وتقدّمت به السن ؛ وبينما كان المعتمد في
قرطبة ، ثار اليهود في إشبيلية ، فبعثه المعتمد ليخمد
تلك الثورة ، فانطلق واهن الجسم ، شارد اللب ،
تتخايل له ولادة أينما يصرف البصر .

وبلغ إشبيلية ، وقد ثقل عليه المرض ، فراح يذكر
أيام الوصال ، فتبسط أسارىره ، ثم لا يلبث أن
يتذكر الهجران ، فيئن ويتوجّع ، وينشد :

هل تذكرون غريباً عادته شجنٌ
من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ
يُخفي لواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوى لديه السرُّ والعلنُ
يا ويلتناه أيبقى في جوانحه
فؤاده وهو بالأطلال مُرتهنُ
وراح يلفظ أنفاسه ، فكان اسمٌ ولادة بنت
المستكفي ، التي لوَّعته بهجرها ، آخر ما نطق به .